نظرية الجاحظ في كتابة اللفظ والمعنى وموقعها في الدراسة النقدية والبلاغية قديما و حديثا

د. يوسف غيوة
جامعة منتوري
قسنطينة-الجزائر

تعد ثنائية اللفظ و المعنى من أهم القضايا البلاغية و النقدية التي دار حولها جدل واسع في ميدان الدراسة الأدبية ، حيث حظيت بقسط وافر من جهود علماء هذه الدراسة و ذلك منذ زمن الجاحظ إلى عصرنا الراهن ، حيث يعدها المفكر المغربي الجابري " المشكلة الإبستمولوجية الرئيسية في النظام المعرفي البياني ... التي أسست هذا النظام ، أو على الأقل بلورته و بقيت تغذيه منذ عصر التدوين إلى اليوم " (1)

و كان الدارسون يجمعون على أن أبا عثمان هو أول من أثار هذه المسألة عندما فصل بين دلالات النص الأدبي ، و مدلولاته ، من خلال أحكام متعددة تتباين أحيانا إلى حد يبلغ درجة التناقض، على الرغم من عودة بعض الباحثين المعاصرين بالقضية إلى عصر تدوينها (2)

شهد الجميع إذن ، بريادة الجاحظ لهذا المجال ، و لم يخرج عن هذا الإجماع إلا باحث أو اثنان ، مع التسليم بفضل أبي عثمان في معالجة ثنائية اللفظ و المعنى ، و طرحها على بساط الدراسة العلمية بهذا الشكل . و من الباحثين الذين حاولوا إيجاد جذور لهذه القضية في أزمنة قديمة ، عند العرب أو عند الأعاجم ، الدكتور محمد طاهر درويش الذي يعود بالقضية إلى الفكر اليوناني القديم ، حيث يجعل أرسطو أول من أثارها . غير أنه يسجل فرقا بين طرح أرسطو و معالجة العرب بعامة و الجاحظ بخاصة، و يتحدث عن أرسطو و دوره في هذا الصدد فيقول :" و لم يطل الوقوف أمام اللفظ و المعنى على أساس المقابلة بينهما ليرجح أحدهما على الآخر كما فعل العرب ... و لكن كان يرى أن الألفاظ علامات على المعاني و رموز لها " (3)

فالدكتور درويش يجد في معالجة صاحب المنطق إثارة

للعلاقة بين اللفظ و المعنى، التي لم تتعد موضوع الدلالة ، بينما هي عند العرب أمر آخر كما سنرى في مراحل هذا البحث .

و يكون بذلك الدكتور درويش قد خرج عن إجماع بقية زملائه من النقاد و الدارسين ، و انفرد برأيه في هذه القضية ، حيث لم نعثر فيما قابلنا من الدراسات و البحوث التي تناولت هذه القضية على رأي آخر ينسب فضل الريادة فيها إلى صاحب المنطق . فكل الدارسين و العلماء قديما و حديثا يحصرونها في الدائرة العربية . و أغلبهم يسلمون بريادة أبي عثمان لمجالها ، و يسجلون سبقه إلى طرحها على بساط الدراسة ، يتفاوتون من حيث التصريح بريادة شيخ الكتاب العرب ، لكنهم يتفقون على جعله صاحب الفضل بعرضه هذه القضية بشكلها المعروف، و ذلك على الرغم من وجود بعض النصوص لدى الباحثين المحدثين توحي بأن بحث المسألة في البيئات العلمية العربية قد تم قبل زمن الجاحظ ، كما يفهم من قول الدكتور محمد الجابري :" نسجل باديء ذي بدء ، أن أول ما يلفت الانتباه في الدراسات و الأبحاث البيانية ، سواء في اللغة أو النحو أو الفقه أو الكلام أو البلاغة أو النقد الأدبي هو ميلها العام و الواضح إلى النظر إلى اللفظ و المعنى ككيانين منفصلين ، أو على الأقل كطرفين يتمتع كل منهما بنسبة واسعة من الاستقلال عن الآخر . نجد هذا واضحا في الطريقة التي سلكها اللغويون في جمع اللغة و وضع معاجم لها ، و هي بصورة عامة طريقة الخليل بن أحمد التي انطلق فيها من حصر الألفاظ الممكن تركيبها من الحروف الهجائية العربية و البحث فيها عما له معنى أي " المستعمل " و عما ليس له معنى أي " المهمل" (4)

فالمسألة إذن، كانت حاضرة في أذهان العلماء منذ زمن جمع

اللغة ثم زمن تدوينها على عهد الخليل ، و وفقا لهذا فإن ثنائية اللفظ و المعني عرفت قبل زمن الجاحظ ، حيث كانت نظرة أساتذته اللغويين إليها تقوم على الفصل بين عنصريها .

غير أن الجابري يبخل علينا بنص تتجسد فيه هذه النظرة ، و يثبت مسألة الفصل بشكل صريح، و طريقة الخليل في الفصل بين اللفظ المستعمل و اللفظ المهمل ، لا تقوم دليلا قاطعا على البعد البياني في هذا التقسيم .

و إذا كان الجابري توقف بتاريخ الثنائية عند زمن الجمع ، فقد وجد من الباحثين المحدثين من عاد بأصولها إلى العصر الجاهلي.

فالدكتورة هند حسين طه تعود بجذور القضية إلى النقد الجاهلي ، من غير أن تقدم لنا ما ينير طريقنا في هذا المسار ، ثم تجعلها تتطور إلى أن تصل إلى بشر بن المعتمر المعتزلي فتنسب إليه فضل إثارتها و التنبيه إلى اللفظ و المعنى ، و دورهما في الحكم علي الأدب و تحديد قيمته ، و تصرح في هذا الصدد قائلة :" و موضوع اللفظ و المعنى قديم نلمح بذوره في النقد الجاهلي ثم تطور البحث فيه و قد أشار بشر بن المعتمر إلى منزلة اللفظ و المعنى و الحكم من خلالها على الأدب و تقدير قيمته الفنية " (5)

أما الدكتور محمد جمعة عابد ، فإنه يجعل الجاحظ في تناوله قضية اللفظ و المعنى متأثرا ببشر بن المعتمر ، و لو أنه يحصر هذا التأثر في جوانب من القضية ، كما سنرى لاحقا . حيث يقول في هذا الشأن :" ... بل رأيناه يتوق طويلا عند ما أثاره بشر، فيما يخص الألفاظ و المعاني ، و ما يجب لها من صفات و وجوب مطابقة الكلام لسامعيه ، فيتحدث عن مطابقة الكلام للمقام الذي يلقى فيه ، و تفاوت الكلام بتفاوت من يتوجه به إليهم ". (6)

فتأثر الجاحظ ببشر بن المعتمر في رأي هذا الباحث ينحصر في جانب من جوانب ثنائية اللفظ و المعنى ، و أحد عناصرها و نعني به عنصر المشاكلة و المطابقة .

أما موضوع الريادة في هذا المجال ، فإن الباحث لم يشر إليه، ربما بدافع الحرص على عدم الخوض في هذه المسألة و لزوم جانب الحذر فيها ، و هو الموقف الذي شاركته فيه الدكتورة هند حسين طه و هي تعالج قضية اللفظ و المعنى ، حيث لم تصرح بريادة الجاحظ لهذا المجال ، و لم تحرمه فضل السبق صراحة ، بل لزمت الحذر فجعلته أحد الأوائل الذين عنوا بهذه القضية (7) ، دون أن تذكر شركاءه في هذا الفضل .

أما الدكتور عبد القادر القط ، فيقول :" نعثر بطريقة الصدفة في كتاب الحيوان على إشارة لعلها أقدم الإشارات التي تفصل بين اللفظ و المعنى ، و تتحدث عن الأهمية النسبية المرتبطة بكل منهما " (8)

و تمضي الدكتورة وديعة طه النجم في النهج نفسه ، حيث تقول :" و لعل أبا عثمان من أوائل النقاد الذين تناولوا هذه القضية و نبهوا إليها ، ثم جاء النقاد على أثره مناقشين و محللين بين مؤيد أو مخالف له " .(9)

و حاول الدكتور محمد زغلول سلام أن يحدد زمن إثارة هذه الثنائية ، حيث حصر ذلك في كتاب البيان و التبيين ، و هو أمر ينأى عن الحقيقة العلمية ، إذ كان أبو عثمان قد أثار هذه الثنائية قبل تصنيف كتاب البيان و التبيين ، حيث وردت بعض مقولاته التي تناولتها في مؤلفات سابقة عن الكتاب المذكور : منها الحيوان و بعض الرسائل ، غير أن الدكتور سلام لم يلتفت إلى ذلك، لأنه قد يكون وجد أكثر النصوص التي تعالج تلك الثنائية

مبثوثة في كتاب البيان و التبيين فاعتمدها و بنى حكمه عليها. و قد يكون موقفه هذا راجعا إلى اعتقاده بأن هذه الثنائية من قضايا البلاغة و النقد ، و لما كان كتاب البيان و التبيين أقرب ، من حيث الطبيعة إلي هذا المجال ، فإن أبا عثمان ضمنه أحكامه في قضية اللفظ و المعنى ، و لو كان الدكتور سلام اطلع على ما في كتبه الأخرى من نصوص تعالج هذه القضية لكان غير رأيه ، و لكنه اكتفى بما ورد في البيان و التبيين من أحكام حول هذا الموضوع ، و هو ما انجر عنه تغيير تأريخ إثارة موضوع ثنائية اللفظ و المعنى ، و ذلك بتأخيره سنوات ، كما يتضح ذلك من قوله :" قضية اللفظ و المعنى أثارها الجاحظ في البيان و التبيين باعتبارها قضية ذوقية و ناقشها من خلال النصوص التي عرضها " . (10)

و اكتفى نقاد آخرون بإرجاع فضل السبق في هذا المجال إلى أبي عثمان ، دون أن يخوضوا في تحديد تأريخ لإثارة هذه القضية أو المسار الذي اتخذته و التطورات التي عرفتها . من هؤلاء الدكتور محمود الحسيني المرسي الذي يصرح في هذا الشأن قائلا:" و الجاحظ مولع باللفظ و المعنى و له في هذا الميدان آراء ، فهو أول من أوجد هذه الثنائية بينهما " . (11)

و يمضي الدكتور محمد طاهر درويش في الاتجاه نفسه ، فينسب فضل السبق في هذا الميدان إلى أبي عثمان مصححا بذلك موقفه الأول ، و ذلك من خلال قوله :" و له الفضل الأول في إثارة الاهتمام بهذا الموضوع "(12)

شهادة باحث آخر ترتفع بالجاحظ إلى درجة الإمامة لهذا المجال، حيث تجعل جميع المهتمين بهذه القضية من القدماء و المحدثين يصدرون عنه، و يقتفون أثره . هذا ما يصرح به الدكتور فوزي عبد ربه، حيث يقول :" فقد كانت قضية اللفظ و المعنى من

أهم المسائل التي أثارها، و قد أثارها للمرة الأولى في حياة التفكير الأدبي عند العرب ، فقد فطن إلى هذه الفكرة و أخذها عنه المشتغلون بالأدب و المهتمون بأركانه " . (13)

و سلك باحثون آخرون مسلكا آخر في موضوع ريادة هذا المجال ، فلم يشأوا أن يفصلوا في الأمر ، مفضلين التعميم ، إما لأن الموضوع لم تتضح جوانبه كلها لديهم ، و لم يطمئنوا لنسبة فضل السبق إلى شخص بعينه ، أو لأن القضية تبلورت في رأيهم نتيجة إسهامات عديدة من رجالات فئة أو جماعة تجمعها وحدة الرؤية ، و يوحد بين عناصرها مذهب فكري ، أو اتجاه أدبي ، فجنحوا إلى إشراك الجميع في فضل السبق إلى إثارة هذه القضية ، من هؤلاء الدكتور جابرعصفور ، الذي لم ينسب فضل ريادة هذا المجال صراحة إلي الجاحظ، بل رأى أن يرجعه إلى المعتزلة بعامة ، فيترك لنفسه مجالا و مخرجا . فهو لا يحرم أبا عثمان هذا الفضل ، لأنه يعلم – كما صرح به – بأن الجاحظ رأس لفرقة من فرق المعتزلة ، و من ثم فإنه كان يعلم بهذا الموضوع انطلاقا من مسألة الفصل بين دلالات النص الأدبي و مدلولاته التي كانت إحدى الركائز في قضية إعجاز القرآن عندهم ، و ما أفرزه ذلك من جدل بين الفرقاء حول مفهوم الوحي و محل الإعجاز فيه . و موقف المعتزلة من ذلك الأمر كما يتجلى في قول د / الجابري :" و قد أراد المعتزلة أن يعطوا لمفهوم " الإعجاز " القرآني طابعا كليا، بحيث يسلم به العربي و غير العربي فربطوه بأمور تتصل بالمعنى لا باللفظ " (14)

و الدكتور جابر عصفور لم ينص على من نقل هذا التصور الثنائي للعلاقة بين المعاني و الألفاظ من دائرة المسائل الكلامية إلى مباحث الأدب بوجه عام ، و الشعر بوجه خاص ، على الرغم من

أنه يشير إلى دور الجاحظ في إثارة هذه القضية ، و نقلها إلى مجال الدراسة ، و ذلك حيث يصرح قائلا :" منذ القرن الثالث و نحن نسمع أصداء عبارات الجاحظ التي ترد البراعة إلى الصياغة و التصوير و تقلل من شأن المعنى " . (15)

و من غير أن ينص الدكتور جابر عصفور ، على ريادة الجاحظ لهذا المجال ، فإن سياق حديثه عن هذه القضية ، و ذكر أصداء عبارات الجاحظ التي ما زلنا نسمعها منذ القرن الثالث ، تجعلنا نعتقد أن مسألة ريادة أبي عثمان لهذا المجال كانت أمرا قائما في ذهن هذا الباحث المعاصر . و هو ما ينأى بتصوره عن الزمن الذي تحدث عنه د . الجابري من قبل ، زمن اللغويين في القرن الثاني .

- طبعة أحكام الجاحظ الواردة في ثنائية اللفظ و المعنى و الاضطراب في ظاهرها:

شكلت أحكام أبي عثمان الواردة في موضوع اللفظ و المعنى، بيئة خصبة لجدل احتدم بين الباحثين الذي تناولوا مقاربة الجاحظ لثنائية اللفظ و المعنى بالبحث و الدرس ، حيث تفرقت بهم السبل ، و تعددت القراءات ، و راح كل باحث يتخذ بنصوص الجاحظ تلك مسارا ، و يعطيها دلالات ، يرى أن الحقيقة موقوفة عليها دون غيرها .

و مما زاد من اختلاف تفسيرات الباحثين ، و تباين رؤاهم في هذا المجال طبيعة نصوص أبي عثمان تلك ، التي ضمنها نظرته حول " الزوج اللفظ و المعنى " ، حيث جاءت موسومة بسيماء الاضطراب و التباين الذي أضفى عليها قدرا غير قليل من الغموض ، و هو ما أدركه بعض الباحثين ، حيث حملوه مسؤولية

نتائج تلك الظاهرة في عالم الدراسة البيانية . فالدكتورة وديعة طه النجم تعلق على ذلك بقولها :" و يبقى أبو عثمان ، مع ذلك مسؤولا عن هذا الاضطراب في فهم آرائه ، ذلك أنه لا يورد آراءه في موضع واحد ، أو منهج متكامل ، بل كثيرا ما تبدو و كأنها ارتجلت في مواضع لا تنتمي إليها " (16)

و على الرغم من هذا الحكم الصريح الذي تصدره الدكتورة وديعة النجم في حق - لا منهج - أبي عثمان ، نجدها تبدي رفقا به في كثير من المواقف ، فتغفر له هذا الاضطراب ، و تتجاوز عن التباين الذي نلحظه في ظاهر النصوص المتضمنة لأحكامه في الزوج " اللفظ و المعنى " ، و ذلك لأن موقفه من هذه الثنائية يكون قد اتضح لها، بحكم تعاملها مع مجموع تلك النصوص . تقول في هذا الشأن :" لقد طرق الجاحظ موضوع العلاقة بين اللفظ و المعنى في أكثر من مناسبة و بتفصيل لا يدع مجالا للشك في فهم رأيه كما أرى " (17)

و إذا كانت د. وديعة النجم ممن أدركوا حقيقة موقف أبي عثمان من هذه الثنائية، لما أفنته من وقت في قراءة نصوصه الواردة في هذا الصدد ، و إطالة الوقوف عندها ، و بذل الجهد من أجل تمحيصها و الوصول إلى حقيقة أمرها . فإن بعضا من الباحثين لم يتسن لهم ذلك ، فأخذوا أقوال الجاحظ على ظاهرها ، و تهيأ لهم أنها تنهج نهج الخلط و الاضطراب و تجنح نحو التناقض .

من هؤلاء الدكتور محمد عابد الذي يصرح في هذا الصدد قائلا :" فقد وقف الجاحظ من قضية اللفظ و المعنى موقفا متناقضا" (18)

و تجدر الإشارة إلى أن مثل هذه الأحكام لم تكن عامة بين الباحثين ، إذ نجد من سجل بعض الوقفات المتأنية أمام أقوال

الجاحظ التي عالج من خلالها هذه المسألة ، و بذل من أجل فهمها جهودا حثيثة ، أتاحت له الوصول إلي حقيقة دلالات أقوال أبي عثمان العديدة التي تناول بها ثنائية اللفظ و المعنى .

من هذا الفريق د. الأخضر الجمعي الذي يقول في هذا الصدد :" فتقديم الجاحظ الصياغة أو اللفظ تارة و المعنى أخرى لا يوحي بتضاد أو تناقض إذا حملنا المعنى على أن المقصود به محتوى الصياغة أو المادة الأولية حسب دلالات العبارات و مقتضى آرائه البلاغية و النقدية " (19) .

و هو كذلك لا يوحي بتضاد أو تناقض إذا حملنا اللفظ على أن المقصود به " ما ينتظم بالألفاظ من العبارات ، شعرا أو نثرا "(20) و أيا كانت مواقف الباحثين من أسلوب معالجة أبي عثمان لقضية اللفظ و المعنى فإن أقل ما يمكن أن نقوله في هذه المسألة هو أن أحكامه و آراءه الصادرة في حقها يتطلب فهمها و تحديدها قراءة متأنية عميقة للنصوص التي عالج من خلالها الثنائية ، حيث إن طبيعتها ، و التباين في ظاهرها يفرض ذلك . فهو ينتصر للفظ في بعضها ، و يجعل المعنى أمرا في متناول الجميع ، ثم يخالف موقفه هذا في بعضها الآخر ، فيجعل المعنى محور الأمر و مداره ، ثم يعدل عن رأيه في بعضها الثالث فيسوي بين العنصرين ، حيث يجعل أهميتهما في درجة واحدة، ثم يربط بينهما برباط وثيق ، فالعناية بتجويد عنصر يتبعها بالضرورة تجويد العنصر الثاني . ثم يدخل عامل الخصوصية ، حيث يجعل لكل مقام مقال ، و لكل معنى لفظ هو حقه و حظه . مما يجعل تحديد موقفه في هذه القضية أمرا غير يسير ، و هو ما أثار اختلاف الباحثين المحدثين حول تصنيف أبي عثمان و تحديد موقفه من قضية اللفظ و المعنى ، فذهب فريق - أغلب الباحثين - إلى

جعله أحد أقطاب المنتصرين للفظ على حساب المعنى ، و أسرف بعضهم فنصبوه رئيسا لهذا الفريق و زعيما لهذا الاتجاه ، بينما رأي فريق ثان أن أبا عثمان ينهج نهج التسوية ، حيث يضع العنصرين في درجة واحدة من الأهمية . و راح فريق ثالث من هؤلاء الباحثين يتجه وجهة مغايرة ، حيث جعل أبا عثمان من المنتصرين للمعنى .

و لنقف على طبيعة هذا الجدل الذي أثارته أقوال أبي عثمان في ثنائية اللفظ و المعنى ، و لنحدد أسسه في نظريته، نرى أنه يجدر بنا تقديم النصوص التي تضمنت أحكامه المكونة لنظريته في ثنائية اللفظ و المعنى ، التي كانت منطلقا لمواقف الباحثين و العلماء التي سنستعرضها فيما بعد .

- النصوص المتضمنة لنظرية الجاحظ في " اللفظ و المعنى "

و لعل أشهر نص تضمن حكما للجاحظ في هذا الموضوع ، و بنى عليه جل الباحثين آراءهم هو ذلك النص الذي نقل إلينا موقف أبي عثمان الانفعالي من إعجاب أبي عمرو الشيباني من بيتي شعر لم يجد بهما الجاحظ ما يثير الإعجاب ، و قد ورد هذا النص في كتاب الحيوان ، جاء فيه " و أنا رأيت أبا عمرو الشيباني و قد بلغ من استجادته لهذين البيتين ، و نحن في المسجد يوم الجمعة ، أن كلف رجلا حتى أحضره دواة و قرطاسا حتى كتبهما له . و أنا أزعم أن صاحب هذين البيتين لا يقول شعرا أبدا . و لولا أن أدخل في الحكم بعض الفتك لزعمت أن ابنه لا يقول الشعر أبدا ، و هما قوله :

لا تحسبن الموت موت البلى   فإنما الموت سؤال الرجال

كلاهما مـــوت و لكـــن ذا أفظع من ذاك لذل السؤال

و ذهب الشيخ إلى استحسان المعنى ، و المعاني مطروحة في الطريق يعرفها الأعجمي و العربي ، و البدوي و القروي و المدني ، و إنما الشأن في إقامة الوزن و تخير اللفظ و سهولة المخرج و كثرة الماء و في صحة الطبع و جودة السبك . فإنما الشعر صناعة و ضرب من النسج و جنس من التصوير ." (21)

هذا هو موقف الجاحظ الذي جعل أغلب الدارسين المشتغلين بقضايا النقد و البلاغة يصنفونه في دائرة المنتصرين للفظ علي حساب المعنى . و منهم من التمس له تأسيسا في مبدأ الفلسفة الأرسطية التي " تقدم الصورة على الهيولي و الشكل على المادة"(22)

و نحن عندما ننظر إلى هذا النص بتمعن و تدقيق ، نجده إنما يعبر عن حالة مفردة ، فهو لا يتناول قضية اللفظ و المعنى من جميع جوانبها ، و لا يعالجها بوجه عام ، و إنما مضمونه هو محاولة لإبراز مواطن الجمال في الشعر ، التي لا تتمثل في نظر الجاحظ في المعنى ، لأن هذا المعنى في متناول عامة الناس ، بينما جمال الشعر و جودته في عناصره الأخرى كالوزن و اللفظ المناسب لمعناه، المعبر عنه بدقة . و كالسبك الجيد ، أي العناية بجودة البناء و الصياغة ، و كسلاسة الشعر و انسيابه ، بغرض تحقيق التلاؤم و التجانس بين أجزائه . و هذه الأمور افتقدها أبو عثمان في هذين البيتين ، من ثم كان حكمه على قائلها بهذه القسوة ، حيث جعله لا يملك الشاعرية ، لافتقاده الطبع من جهة ، و عدم تمكنه من عناصر الشعر الضرورية من جهة أخرى .

إذن ، فحديث الجاحظ عن اللفظ و المعنى في هذا النص و ليد انفعال عابر ، كان نتيجة غضب في ظرف معين ، من ثم كان يجب

التزام الحذر في اتخاذ هذه المقولة أساسا وحيدا للحكم على نظرية أبي عثمان في مدلولات النص الأدبي و دلالاته ، و كان يجدر بمن صنفوه في دائرة المنتصرين للفظ ، أن يبنوا أحكامهم على محصلة ما بجميع النصوص التي عالج من خلالها ثنائية اللفظ و المعنى ، و بخاصة إذا أخذنا في الحسبان عنصرا هاما في تلك النصوص ، يتمثل في طابع الشمولية و الحسم التي تميزت به ، و تعارضها في هذا مع ما قد يفهم من النص السابق . ثم إن المنهج العلمي السليم يقتضي أن توضع هذه المقولة في إطارها ، و تعالج في سياقها ، غير أن كثيرا من الدارسين ، لم ينهجوا هذا النهج ، فأخذوا بظاهر القول و بنوا عليه مواقفهم من هذه القضية . و لم يسلك غير هذا إلا قليل منهم ، مثل الدكتورة وديعة طه النجم التي نبهت إلى سياق قول الجاحظ ، حيث قالت في هذا الصدد :" و كأن أبا عثمان حينما يطرح المعاني في الطريق ، يستهين بقدرها ، و يجعل الشأن كله لأسماء المعاني ، أو الألفاظ .. فاتهمه بعض النقاد بالوقوع في التناقض في الرأي ، و أنكروا عليه (زعمه) بأن (المعاني مطروحة في الطريق ..) و عد ذلك شططا .

و الواقع أن الأمر لم يكن كذلك ، لأن القولة حينما تنتزع من سياقها الذي جاءت فيه ، قد تبدو غريبة و يساء فهمها . فقد جاء هذا القول في معرض التعليق على رأي لأبي عمرو الشيباني - الراوية المعروف - الذي كان حكمه على الشعر مقصورا على مقاصد محدودة و ضيقة ، عند استحسان الشعر . فلننظر في الرواية ، و في السياق الذي وردت فيه ، و من ثم في تعليق الجاحظ على حكم أبي عمرو .. " (23)

و بعد أن تنقل النص الذي سجل فيه الجاحظ موقفه من حكم أبي عمرو (24)، تسعى الدكتورة وديعة طه النجم إلى تفسير ما

ذهب إليه الجاحظ ، و توضيح موقفه بدقة، فتقول :" فكأن الجاحظ يقول ، إن مجرد استحسانك معنى من المعاني ، وردت في بيت شعر أو شبهه ليس مبررا كافيا لكي تقبل صحة روايته، أو صحة نسبته إلى القائل ، و أن الشعر شيء و روايته شيء آخر تماما. و الدليل على ما ذهب إليه أبو عثمان من التمييز ، أنه لم يكتف بقولته تلك ، بل راح يحدد بكل دقة أين يجب أن يكون (الشأن ..) - كما يسميه - فحكم الجاحظ هنا ، يحمل في طياته ردا علي قبول أبي عمرو الشيباني نسبة البيتين إلى القائل ، مدفوعا بإعجابه بمضمون البيتين المرويين له فحسب ، و يخيل إلي أن الجاحظ - فضلا عن ذلك - يحمل في ذهنه هنا نوعا من القياس بين (المطلق) و (المحدود) فأي معنى من المعاني يمكن أن يكون له وجود مطلق غير محدود يعرفه العجمي و العربي لأن المعنى شيء مشترك بين الخلق .. و لكن متى يخرج المعنى من حد الإطلاق ليصبح شيئا مخصوصا بصاحبه ؟ إنه يخرج حينما ينقله صاحبه من المطلق إلى المحدود بواسطة الإبانة عنه ، و حمله على الألفاظ أو الوسائل الأخرى المعروفة للبيان .

و هكذا فالجاحظ إذن ، لم يشأ أن يستهين بالمضمون أو بالمعنى . مقدما عليه الشكل الظاهر " . (25)

- الثنائية بين المحدود و المطلق :

إذن تخريج الدكتورة النجم غير بعيد عن حقيقة مقصد أبي عثمان ، لقد أدركت ما أراده بالتحديد فهو يطرح ثنائية أخرى التفت إليها بعض من عنوا بدراسة ثنائية اللفظ و المعنى ، و نعني الثنائية بين (المطلق) و (المحدود) . فهو عندما يجعل المعاني مطروحة في الطريق لا يعني - بالضرورة - الحط من قيمتها أو تأخير درجتها في سلم العناصر الشعرية - كما لاحظت

هذا الدكتورة وديعة النجم . فالإنسان كثيرا ما تختلج في نفسه معان و أحاسيس ، و تدور في ذهنه أفكار دون أن يقوى على إخراجها و التعبير عنها ؛ لأن الوسيلة تخونه ، فتقعد به قدراته عن الوصول إلي غايته . و ما قيمة المعنى إذا بقي كامنا في الصدور ؟ أليس يكسب قيمته و يتمكن من النفوس إلا بخروجه إلى الناس في صورة جميلة ، و وصوله إلى المتلقي في مخارج حسنة ؟ .

إن هذا ما تقرره الدكتورة وديعة النجم تعقيبا علي فكرة الجاحظ القائلة بطرح المعنى و بسطه إلي غير نهاية ، حيث تقول :" و يفهم من العلاقة المعروضة هنا أن المعاني ، ما لم تحددها أسماؤها تبقى ممتدة مطلقة و غير محدودة ، و هذا أمر لا غبار عليه ، ذلك أنك تجعل من لفظك مركبا تحمل عليه قصدك ، فتحدده به " . (26)

و الدكتورة الباحثة لم تأت بهذا التفسير من فراغ ، بل هو مبني علي فكرة الجاحظ التي تفرق بين المعنى الخفي المستور في صدر صاحبه و المعنى المكشوف المقدم للمتلقي بواسطة وسيلة من وسائل البيان (اللفظ ، الإشارة ..) .

و يعبر د . الأخضر جمعي عن هذا الأمر بشكل آخر ، دون أن يخرج عن السياق الذي وضعت فيه الدكتورة وديعة طه النجم مقولة أبي عثمان ، يقول في هذا الصدد :" فالمعنى خارج مجال الصورة مادة ملقاة في الطريق ، كأصول عامة منثورة في الموجودات كلها ذلك أن كل موجود ناطق بالدلالة ، ناهيك عن الأغراض أو أصولها التي هي مصادر للشعر مادة ملقاة في الذاكرة العامة راسخة في الديوان المعرفي للأمة ، و ما دام المقام مقام شعر ، فالإخراج الصوري للمعنى فيه إنما هو سبك لهذه المادة الملقاة أو المعروفة في بناء جديد ، فتولد كايانا جديدا ، أصوله

معروفة و خواصه الحيوية جديدة . و في هذا السبك الجديد ميلاد جديد للمعنى يتم عبر التوليد أو التفطن للغريب وسط الملقى المألوف ، أو التعامل مع المعروف على أنه بمجرد أن يتلبس بالصورة يوهب الوجود المتجدد فيستحيل محتوى بعد أن كان موضوعا . للمعنى عنده دلالتان : دلالة المحتوى المتلبس بالصياغة أو كما شاع قديما صورة المعنى ... و دلالة المعنى المعادلة للمادة الأولية " (27)

فالدكتور الجمعي ، يفرق بين المعنى المحدود بالصياغة و التشكيل بواسطة الألفاظ ، و المعنى المطلق " المعادل للمادة الأولية و ذلك دون حاجته إلى المصطلحات المعبرة عن ذلك في كتابات غيره.

إن أبا عثمان ما يزال يلح على هذه الفكرة ، و يعدد من الصور بغرض إقناع المتلقين بها ، فهو - فضلا عن المقولة السابقة - يقول في هذا الصدد :" قال بعض جهابذة الألفاظ و نقاد المعاني : المعاني القائمة في صدور الناس ، المصورة في أذهانهم ، و المتخلجة في نفوسهم و المتصلة بخواطرهم ، و الحادثة عن فكرهم مستورة خفية ، و بعيدة وحشية ، و محجوبة مكنونة ، و موجودة في معنى معدومة ، لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه و لا حاجة أخيه و خليطه و لا معنى شريكه و المعاون له على أموره و علي ما يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره . و إنما يحيي تلك المعاني ذكرهم لها و إخبارهم عنها ، و استعمالهم أياها ، و هذه الخصال هي التي تقربها من الفهم و تجليها للعقل ، و تجعل الخفي منها ظاهرا ، و الغائب شاهدا و البعيد قريبا (28) .

إن أبا عثمان يمعن في الفصل بين المعاني في وضعها الأول "مطلق" أو عندما تكون في وضع المادة الأولية ، و بين المعاني في

وضعها الثاني ، أي عندما يتم ذكرها و التعبير عنها و استعمالها في موضوعاتها قصد الإبانة و الإفهام . و هو ما يقربها من الفهم و يجليها للعقل و يقرب بعيدها و يحضر غائبها .

فإدراك محاسن المعاني و تحديد درجات الجمال فيها لا يتم إلا بالإبانة عنها و تقديمها في صورها من خلال التشكيل اللفظي و البناء الفني الذي يحدد دائرتها ، و يقيد فضاءها .

- الفصل بين اللفظ و المعنى :

يخلص الجاحظ من هذه الرؤية إلى مسألة أثارت جدلا لدى المشتغلين بقضية اللفظ و المعنى ، تتمثل في الفصل التام بين اللفظ من جهة و المعنى من جهة أخرى . و الذهاب إلى أن المعاني قد توجد في صدور الناس دون أن يستوجب ذلك وجود ألفاظ تعبر عنها ، و هي مبسوطة غير محدودة، أي أنها بذاتها قد تستغني عن ألفاظ تعبر عنها . بينما هذه الأخيرة غير ذلك ، فاللفظ لا يمكن له أن يوجد مستقلا عن المعنى ، بل إن جوهر وجوده هو التعبير عنه .

هذه الفكرة تعد أحد المداخل إلى نظرية الجاحظ في قضية اللفظ و المعنى ، و هو يلح عليها و يؤكدها في أكثر من موضع . مثل قوله :" و لا يكون اللفظ إسما إلا و هو مضمن بمعنى و قد يكون المعنى و لا اسم له ، و لا يكون اسم إلا و له معنى " (29)

فإذا كانت المعاني في وضعها المطلق ، كمادة أولية ، متوفرة في صدور الناس و أذهانهم دون أن تتقيد بوجود الأسماء المعبرة عنها ، فإن وجود هذه الأخيرة ، مرتبط بمعان تعبر عنها ، و بخاصة إذا كانت أسماء صفات . هذا ما يؤكده الجاحظ بقوله معلقا على الآية الكريمة (و علم آدم الأسماء كلها) (30) . " لا يجوز أن يعلمه الاسم و يدع المعنى ، و يعلمه الدلالة و لا يضع له المدلول عليه ، و الاسم بلا مسمى لغو كالظرف الخالي ، و الأسماء في معنى الأبدان

و المعاني في معنى الأرواح . اللفظ للمعنى بدن والمعنى للفظ روح . ولو أعطاه الأسماء بلا معان لكان كمن وهب شيئا جامدا لا حركة له و شيئا لاحسن فيه وشيئا لا منفعة عنده " (31)

فالأمر إذن ، لم يعد يقبل أي لبس ، ولا يحتمل أي تأويل ، فالفصل بين طرفي الثنائية قائم ، يثبته ويؤكده احتمال وجوداللفظ المعبرعنه، حيث إن الوجود- كما أشار د/الجمعي من قبل- وجودان، الوجود المعنى دون حتمية وجود المطلق والوجود المقيد بالإسم المعبر عنه .

إذن ، أثارت مسألة الفصل بين وجود كل من اللفظ والمعنى جدلا واسعا بين الدارسين والنقاد ، حيث أعلن بعضهم عن تحفظهم ، وعدم هضمهم هذه الفكرة ، لأنهم لا يتصورون وجود معان بدون ألفاظ تعبر عنها ، وتدل عليها ، من ثم راح كثير منهم يعيب على أبي عثمان مذهبه هذا ، كما هو شأن الدكتور زكي العشماوي الذي يعقب على النص السابق بقوله :

"هذا بالإضافة إلى أن النص السابق يقرر حقيقة غاية في الخطورة ، بل هي أبعد ما يكون عن حقيقة الخلق الأدبي ، فقد جعل الجاحظ للمعنى قبل النطق به أو تدوينه وجودا مستقلا ، مثل هذا أو غيره لا يمكن أن يستقيم فهمه ، إذ كيف يمكن أن يتصور معنى لم يخلق بعد ، إن وجود معنى يستلزم بالضرورة وجود الصورة التي تعبر عن معنى سواء أكانت لغة أم لحنا موسيقيا ، أم لونا"(32)

إن موقف هذا الباحث من رؤية الجاحظ في مسألة الفصل بين وجود اللفظ و وجود المعنى حاسم لا يقبل الجدل ، فهو يرفض رفضا قاطعا فكرة أبي عثمان من أصلها ، ولا يقبل أن يتصور مثل هذا الأمر ، فلا وجود لأي معنى إلا وهو مقترن بالشكل الفني الذي

يعبر عنه ، من ثمة يذكر على الجاحظ تصوره لمعنى لم يخلق بعد .

ولعل وقع فكرة الجاحظ عليه حجب عنه حقيقة ما يقصده هذا الأخير ، فنحن عندما نتفحص مقولته التي صعقت الدكتور العشماوي وبشيء من التدقيق نجده لا يتعرض لمعنى لم يخلق بعد ، بل كان زعمه أن المعنى قد يوحد صدر صاحبه ، دون لفظ يعتبر عنه أي أنه قد يوجد في المطلق والفرق جلي بين الأمرين . وهو ما أدركه باحث معاصر آخر ، حيث قال في هذا الشأن :"إن الكلام بالنسبة للفكر هو عملية مصاحبة له ، غير خالقة له على وجه اليقين." (33)

ولا يعني هذا أن الدكتور حسن ظاظا يشاطر أبا عثمان رأيه كاملا ، فهو الآخر يرفض أن يسلم بوجود معان بدون ألفاظ تعبر عنها "لايمكن تصور فكرة بدون ألفاظ" (34) غير أنه يختلف مع الدكتور العشماوي في قضية "الخلق الأدبي" فبينما يجعل المعاني مخلوقة بواسطة الألفاظ ، التي تصاحبها لاغير ، يقرن الدكتور العشماوي بين وجود العنصرين ، وجعل تلازمهما في الوجود والخلق حتمية لا مفر منها .

وهو عندما يذهب إلى أن المعاني قد توجد في وجدان الإنسان ، وأنه قد يدركها بذهنه دون أن تكون لديه ألفاظ يعبر بها عنها ، لم يكن بعيدا عن فكرة التطور و الإبتكار التي تساير الحياة البشرية ، فحياتنا تشهد أحداثا وإختراعات وعلاقات لا توجد في لغتنا ألفاظ تعبر عنها الأمر الذي يدفعنا إلى البحث والتفكير بغرض إيجاد هذه الألفاظ ، سواء أكان ذلك عن طريق الإشتقاق أم الابتكار والخلق ، أم الإعارة من لغات الآخرين ، بواسطة أمر مما ينمي اللغة و يطورها .

فمغزى الجاحظ من نصه المتضمن فكرة الفصل ، ينحو نحو

القضايا الفلسفية من جهة ، وقضايا علوم اللسان من جهة أخرى ، اهتدى إلى هذا باحث متخصص ، كرس بحثا أكاديميا للقضايا الفلسفية عند الجاحظ ، هو الدكتور علي بوملحم الذي يصرح في هذا الشأن قائلا : "إن الجاحظ يكشف النقاب عن الحقيقة التالية وهي كون المعاني يولدها العقل البشري بدون حدود ، وهذا هو السر في تقدم الإنسان وترقي العلوم . بينما الألفاظ التي تعبر عن المعاني محدودة معدودة محصورة في المعجم، غير أن الانسان استطاع أن يجد وسيلة للتغلب على هذا الخلل الحاصل بين معادلة اللغة و المعاني و هي اختراع ألفاظ جديدة تعبر عن المعاني المبتكرة ومع ذلك لا بد من الاعتراف بأن الألفاظ تبقى عاجزة إلى حد كبير عن استيعاب المعاني وحصرها" . (35)

ويسعى باحث رابع مسعى آخر في هذه المسألة ، حيث يحاول الدكتور محمد زغلول سلام أن يجد تفسيرا لما ذهب إليه أبو عثمان ، فيجعل اللفظ الذي يريده هذا الأخير هو التركيب اللفظي، كما أن المعنى الذي يريده أبو عثمان هو المعنى الذي تدل عليه تلك العبارة ، أما فصل اللفظ المفرد عن المعنى فهو أمر لا يقبله ولا يستطيع أن يتصوره (36) ، أي أنه يشاطر الباحثين السابقين رفضهما أية فكرة تقول بفصل اللفظ المفرد عن معناه المفرد .

و ما ذهب إليه محمد زغلول سلام في موضوع التفريق بين اللفظ المفرد و بين ما يتشكل منه من عبارات و جمل ضمن بنية النص الشعري أو النثري نجد له أصداء في مقاربة د . الجابري للزوج " اللفظ و المعنى " حيث يصرح قائلا في هذا الشأن :" و على الرغم من أن سياق كثير من مقاطع كتابه " البيان و التبيين " التي يتحدث فيها عن " اللفظ " يدل على أنه يقصد لا اللفظ المفرد بل ما ينتظم بالألفاظ من العبارات ، شعرا و نثرا ، الشيء الذي

يجعل منه الملهم لنظرية " النظم " التي سيشيدها الجرجاني ، على الرغم من هذا و ذاك فقد أخذ منه كثيرا ممن جاءوا بعده جانبا واحدا هو إبرازه لأهمية اللفظ في العملية البيانية " (37) .

- مواقع النظم في نظرية الجاحظ حول ثنائية اللفظ و المعنى

إن المتتبع لنصوص الجاحظ التي تناول من خلالها موضوع هذه الثنائية ، و حدد نظرته إلي جوانبها جميعا عبرها يقف على هذه الحقيقة . حقيقة حضور البنية في العمل الفني الذي يعد الخطاب البياني أحد ضروبه الرئيسية ، ليس في كتاب البيان و التبيين وحده ، بل في كتاباته جميعا ، انطلاقا من النص الخطير بانعكاساته و تأثيراته على النظرة البيانية العربية ، و بما يتفرع عنه من قضايا نقدية و بلاغية شديدة الأهمية في مسار النقد العربي قديما و حديثا ، و في القضايا البيانية التي فجرتها ، و ذلك على الرغم من السياق الذي ما زالت د . وديعة طه النجم تلفت انتباه الدارسين إليه (38) ، و الذي كان يمضي فيه موقف أبي عثمان الانفعالي من إعجاب أبي عمرو الشيباني ببيتين من الشعر الرديء ، سبق ذكرهما فيما مضى من أجزاء هذا البحث ، و التي وردت في كتابه " الحيوان " و ليس في " البيان و التبيين " الذي شغل الباحثين بقدر يفوق ما ناله منهم الكتاب الأول .

و إذا كان الجزء الأول من تعقيب الجاحظ على " فعلة " أبي عمرو قد شغل بيئات الدراسة البيانية قديما و حديثا ، كما أشار إلى ذلك د . الجابري في النص السابق ، و إذا كان قوله :" المعاني مطروحة في الطريق " قد وضعه في حكم كثير من لاحقيه على رأس

المنتصرين للفظ ، المستهترين بأهمية المعنى ، فإن أهم من ذلك الأجزاء الأخيرة من حكمه، و هي الأجزاء التي فجرت كثيرا من القضايا النقدية و البيانية عبر المصطلحات التي وظفها أبو عثمان في التعبير عن تلك القضايا الرئيسة في دراسة العمل الأدبي ، فإقامة الوزن ، و تخير اللفظ ، و سهولة المخرج ، و كثرة الماء ، و صحة الطبع ، و جودة السبك . هي مدار الأمر و عين القضية .

إن نظرة متأنية إلى هذه المصطلحات تكشف للمتلقي عناصر العمل الإبداعي الجدير بالتقدير و الإعجاب ، و كأني بهذه الصفات تتضافر ، و تتعانق من أجل غرض سام ، إنه العملية البنائية التي ينتج عنها خطاب فني مؤثر ، ذو أبعاد و امتدادات عظيمة .

ثم إن اللفظ لم ينل من حظ صاحب العلم هذا إلا ميزة الاختيار، ذلك أن أبا عثمان لو قال :" إنما الشأن في اللفظ و كفى ، لذهبنا مع من جعلوه إمام المنتصرين لهذا العنصر في العملية الإبداعية ، لكنه لم يفعل ، بل أكثر من ذلك لم يرفع من شأن اللفظ كعنصر مفرد، و إنما خص تخيره بقسط من العملية ، " إنما الشأن في تخير اللفظ و .. و .. و ... " فتخير اللفظ أحد أركان العملية و ليس العملية كلها ، و ليس خاف على المتلقي أن تخير اللفظ إنما الهدف منه – في تصور الجاحظ – هو توظيفه في عملية البناء ، التي أكدها بالجزء الأخير من عباراته ، و الذي لا يقل أهمية عن سابقه "فإنما الشعر صناعة و ضرب من النسج و جنس من التصوير " و هو ما يكشف – بما لا يدع مجالا للشك – للباحث المتقيد بالموضوعية ، الساعي إلى تحديد الحقيقة العلمية ، عن تصور الجاحظ ، و نظرته الحقيقية إلى عملية الخلق الفني التي تتمخض عن النص الشعري . فالصناعة هي عمل بنائي ، و النسج

هو تشكيل و بناء بالدرجة الأولى ، و إذا كان أبو عثمان أدخل عنصر الصورة - للمرة الأولى في الخطاب النقدي العربي، فإن ذلك إنما كان بهدف إعطاء عنصر التخييل حقه في العملية الإبداعية، ويبقى البناء و التشكيل هو أساس العملية . من ثم كان من لفت انتباه المتلقي إلى اللفظ المنتظم في تصور الجاحظ غير بعيد عن حقيقة ما قصده في خطابه النقدي و البياني .

و النظم عند الجاحظ لا يقتصر على انتظام الألفاظ و تآلفها وتلاؤم العبارات و تلاحمها ، بل يتعدى ذلك المقدار ، حيث يتدرج من هذا المستوى ، إلى انتظام الألفاظ و المعاني و مشاكلة بعضها لبعض ، ثم يتعدي ذلك فيقترب " من مفهوم التأليف الشامل لمستويات النص " (39) الشيء الذي يجعل له أثرا على تصور الجاحظ لأسلوب الخطاب البياني كما يرى ذلك الدكتور عبد السلام المسدي ، عبر قوله :" لقضية النظم هذه أثر واضح في تحديد مفهوم الجاحظ للأسلوب"(40)

و لئن كان الجاحظ وظف مصطلح النظم في بعض نصوصه ، فإنه عمد إلى توظيف بعض المصطلحات التي تترادف معه ، كما لاحظ ذلك د / الجمعي " فمعنى النظم يترادف مع التأليف و السبك و مشابهاتها في إطار شامل لبنية أي نص " (41)

و لعل مصطلح " السبك " يحتل مكانة متميزة في هذا المجال، فهو حاضر في مقاربات الجاحظ للنص الأدبي بعامة ، و تحديد مواطن الجودة و الجمال فيه بخاصة . ففي النص الشعرى تحظى " جودة السبك " بمقام رئيس في تصور أبي عثمان لتحقيق الجمال الفني ، فبالإضافة إلي اعتمادها أداة رئيسية في إعلاء " شأن " النص الشعري ، مثلما مر بنا في تعقيبه على موقف أبي عمرو الشيباني ، يعمد أبو عثمان إلى التصريح بأهميتها في تحقيق

الجودة للنص الشعري أيا كان زمنه و مبدعه . من ذلك قوله :" و أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء ، سهل المخارج ، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغا واحدا ، و سبك سبكا واحدا ، فهو يجري علي اللسان كما يجري الدهان " (42)

و من ذلك قوله عن " جواهر الكلام " التي حددها في " الألفاظ المتخيرة ، و المعاني المنتخبة ، و على الألفاظ العذبة ، و المخارج السهلة ، و الديباجة الكريمة ، و على الطبع المتمكن و على السبك الجيد " (43)

و يبقى مصطلح " النظم " في ذهن الجاحظ مرتبطا بالنص القرآني . يقول مثلا :" كما عبت كتابي في الاحتجاج لنظم القرآن و غريب تأليفه و بديع تركيبه " (44)

ذلك أن النص القرآني يختلف اختلافا بينا عن أنواع الخطاب الأخرى ، " فإذا عرف صنوف التأليف عرف مباينة نظم القران لسائر الكلام " (45) .

نزعم هذا ، و اليقين يراودنا لما نجده من أهداف سامية لدى المعتزلة بخاصة و المتكلمين بعامة ، في إحدى قضاياهم الكبرى ، قضية الإعجاز القرآني التي ما زال أبو عثمان يناضل من أجل إقرارها كإحدى الحقائق التي يقوم عليها مذهبه ، و يهزم بها خصومه في العقيدة و الأديولوجيا .

- النظم و دوره في تحقيق الإعجاز في النص القرآني

إن أبا عثمان في مقاربته لثنائية اللفظ و المعنى إنما كان بفعل ذلك ضمن مقاربته لقضية أكبر و أهم عنده و عند البلاغيين و المتكلمين من أمثاله ، تلك هي قضية البيان التي شغلت الساحة البلاغية و الكلامية زمنا غير قصير .

و كان أساس المقاربات التي خص بها العلماء المسلمون هو سحر البيان و مواطن ذلك في " الخطاب " و ما هو مقدور عليه من الخاصة و ما يتعذر منه عليها ، أي ما اصطلح عليه بالإعجاز .

و لما كان النص القرآني يمثل النموذج الأمثل في بنية "الخطاب" ، فإن البيانيين العرب انكبوا عليه يبحثون في مواطن بيانه و بلاغته ، بغرض رصد مظاهر الإعجاز فيه ، و تحديد العناصر التي تتفاعل لتحقيق تلك الخاصية .

و لئن حضرت قضية إعجاز القرآن في مقاربات البيانيين العرب بعامة ، فإنها شغلت بيئات المتكلمين منهم بخاصة ، إذ أنها كانت مرتبطة بأحد الأركان الأساسية التي تقوم عليها النظرية الاعتزالية ، و نعني بها : القول بخلق القرآن . و لما كان هذا الركن منطلقا لمناقشة بلاغة القرآن و إعجازه ، فقد رأينا الجاحظ يحدد هذا الإعجاز في نظم النص القرآني الذي لا يعد له نظم و في أسلوبه الذي لا يدانيه أسلوب ، يقول في هذا الصدد :" صار نظمه من أعظم البرهان و تأليفه من أكبر الحجج " (46)

و بما أن القرآن – عنده و عند أقرانه من رجال المعتزلة – حادث مخلوق ؛ فإن ألفاظه حادثة مخلوقة .

و إذا كانت المعاني مطلقة الوجود ، فإن القرآن نقلها من المطلق إلى المحدود . و معنى ذلك أن الفضل بالضرورة يعود إلى الألفاظ ؛ لأن المعاني مبسوطة إلى غير غاية ، و أسماء المعاني مقصورة محدودة.(47)

هكذا عللت الدكتورة وديعة النجم مذهب الجاحظ في تفضيل اللفظ و تقديمه ، و موقفه من إعجاب أبي عمرو الشيباني من معنى البيتين الشهيرين .

و إذا كانت مسألة النظم حاضرة في مقاربة د / وديعة النجم،

فإنها حضرت بشكل متفاوت في مقاربات فريق من زملائها من الباحثين المعاصرين الذين راحوا يقرنون قضية الإعجاز في النص القرآني بنظم لفظه و تشكيل عباراته .

فهذا الدكتور محمد جمعة عابد يقول في هذا المعنى :" إنما وجد أن الإعجاز في القرآن ، لا يفسر إلا عن طريق النظم ، و من بأن النظم حقيق برفع البيان إلى مستوى الإعجاز ، لم يعد قادرا على أن يتبنى نظرية تقديم المعنى علي اللفظ " (48)

فأبو عثمان في نظر هذا الباحث سار في نهج لم يعد باستطاعته تغييره ، و آمن بفكرة لم يعد في يده أن يلغيها ، فما دام الإعجاز في نظم الكلمات ، فلا مناص إذن من تقديم هذه الكلمات و تفضيلها ، و هذا أمر يعد طبيعيا في أحكام الباحثين ، إذ هو ناتج عن معالجة المعتزلة - و الجاحظ من رؤوسهم - لإحدى قضاياهم الأساسية و هي قضية خلق القرآن التي استدعت منهم تكريس حل وسط نتج عنه تسويد اللغة على الفكر و اللفظ على المعنى ، كما فصل القول في ذلك الدكتور الجابري (49)

و الغريب أن الباحثين المعاصرين الذين بهرتهم نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني ، بمن فيهم من أرجعوها إلى أصولها عند الجاحظ لم يلتفتوا إلى نصوص خطيرة تناثرت على صفحات كتب أبي عثمان . تحدد موقفه من قضية الإعجاز ، و تعطي عملية التشكيل أو البناء حقها في مسألة الإعجاز القرآني .

و قد نلتمس بعض العذر للباحث الذي يقرأ ما كتبه أبو عثمان ضمن قراءته عما كتبه غيره من أقطاب التراث . ذلك أن قراءة نتاج الجاحظ تتطلب التفرغ و الجهد و الوقت . لما يطبعه من استطرادات و تكرار و خروج من الجد إلى الهزل ، و من الشعر إلى الخطابة و من التأويل إلى الكلام ، و من السيرة إلى الخبر و من

القول في الطبيعة إلي القول في الفن .

إن نهج أبي عثمان هو المسؤول عن ضياع كثير من أحكامه الهامة ، في خضم تلك الفوضى التي تطبع كتاباته ، و لعل في ذلك بعض العذر للباحث في " نسيانه " بعض النصوص التي من شأنها لو " استحضرها " أن تغير كثيرا من أحكامه فيما يتعلق بقضايا كثيرة تخص الموضوعات النقدية و البلاغية التراثية . يستوي في ذلك الباحثون التقليديون و الحداثيون .

و على الرغم من أن د / الجابري ينتمي إلى الفئة الثانية ، و علي الرغم من أنه خص قضية اللفظ و المعنى بجزء من كتابه الهام " بنية العقل العربي " إلا أنه وقع في أسر " البيان و التبيين " شأنه في ذلك شأن الدارسين البلاغيين في القرن العشرين ، إذ لم يجد في كتاب " الحيوان " إلا النص الذي عبر فيه أبو عثمان عن انفعاله من موقف أبي عمرو ، و هو النص الذي كان أساس أحكام أغلب الدارسين الذي صعقتهم فكرة " المعاني المطروحة في الطريق " بينما ما ورد في مسألة الإعجاز التي تناولها الجابري في كتابه القيم ، لم يحظ بوقفة يسجلها هذا الباحث المفكر . و لعل أهمها ما ذكره أبو عثمان في معرض حديثه عن " الصرفة " التي اتبع أستاذه النظام في القول بها ، و بخاصة في معارضة العرب للقرآن ، و هو الحديث الذي ذكر فيه صنيع مسيلمة في تحبيره كلاما يعارض به قوله عز و جل في كتابه العزيز . قال :" فقد رأيت أصحاب مسيلمة ، و أصحاب ابن النواحة إنما تعلقوا بما ألف لهم مسيلمة من ذلك الكلام ، الذي يعلم كل من سمعه أنه إنما عدا علي القرآن فسلبه ، و أخذ بعضه ، و تعاطى أن يقارنه ، فكان لله ذلك التدبير ، الذي لا يبلغه العباد و لو اجتمعوا له " . (50)

و غني عن التذكير أن قوله أخذ بعضه " يعني به لفظه إذ ذكر

في بداية النص أن أصحابه إنما " تعلقوا بما ألف لهم مسيلمة من ذلك الكلام " ، و التأليف لا يكون إلا بالألفاظ ، فهي مادة البناء ، لكن ذاك التأليف يبقى عاجزا عن خداع من يسمعه ، حول طبيعة مصدره ، إذ أن أبا عثمان يجزم بأن كل من سمعه علم أن صاحبه أخذه من القرآن .

فالإعجاز إذن في التشكيل و البناء ، فقد يستطيع الإنسان أن يأخذ منه لفظا من ألفاظه ، و بإمكانه أن يأخذ معنى من معانيه، لكنه لن يستطيع أن يأخذ بناءه و تأليفه . فذاك مكمن الإعجاز ، و ذلك عين الأمر .

يؤكد أبو عثمان هذا لاحقا ، حيث يقول في شأنه :" و في كتابنا المنزل الذي يدلنا على أنه صدق ، نظمه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد " (51) فالأمر إذن ، جلي لا يحتمل جدلا و لا يقبل تأويلا . النظم هو المصطلح الذي يعبر بدقة عن صفة الإعجاز التي يتسم بها " كتابنا المنزل " .

- التشكيل و البناء و دوره في تحقيق الجودة في النص الشعري

إذا كان النظم هو العنصر الذي يحقق الإعجاز في النص القرآني ، فإنه تحت مصطلح " التشكيل أو السبك أو البناء " هو الذي يرتقي بالنص الشعري إلى مستوى الجودة . و لما كان ذلك في عملية إبداع الشعر يعني تشكيل الألفاظ المفردة ، و تخير المادة المناسبة لذلك (اللفظ) ، و إخراجها في سهولة و سلاسة ، بعيدا عن رياضة التكلف ، و اضطراب الجرس الموسيقي ، و فساد الإيقاع ، أمر يستحق ممن تعذر عليه فهم مقصد أبي عثمان أن يعيد قراءة مقولته قراءة متأنية ، صحيحة . و ذلك أمر من شأنه أن يقرب إلى

فهمه المعنى الحقيقي لتصريح أبي عثمان ، الذي و إن جاء في سياق انفعاله من أبي عمرو الشيباني ، و غضبته من نهج اللغويين بعامة في تقويمهم للنصوص الشعرية ، إلا أنه يشكل قناعة مؤسسة لدى الجاحظ ، لم يتردد في الإلحاح عليها و ترسيخها كقاعدة نقدية .

و ما زاد في يقينه ما لاحظه عند القدامى ، من اشتراك في توظيف معني معين في نصوصهم الشعرية ، دون أن تكون تلك النصوص متطابقة من حيث جودتها ، أو متحدة من حيث مستواها ، و لما كان المعنى واحدا عند الشعراء الذين عبروا عنه بما جادت به قرائحهم من توليف اللفظ و تشكيله ، فإن التفاوت و المفاضلة بين تلك النصوص إنما تكون من قبل ذاك " النسج " و تلك " الصناعة " . و قد عبر عن اشتراك الشعراء في معنى واحد بقوله :" و لا يعلم في الأرض شاعر تقدم في تشبيه مصيب تام ، و في معنى غريب عجيب ، أو في معنى شريف كريم ، أو في بديع مخترع ، إلا و كل من جاء من الشعراء من بعده أو معه ، إن هو لم يعد على لفظه فيسرق بعضه ، أو يدعيه بأسره ، فإنه لا يدع أن يستعين بالمعنى و يجعل نفسه شريكا فيه . كالمعنى الذي تتنازعه الشعراء فتختلف ألفاظهم ، و أعاريض أشعارهم ، و لا يكون أحد منهم أحق بذلك المعنى من صاحبه " .(52)

فالمعنى إذن ، ليس ملكا لأحد من المبدعين ، فهو مشترك بينهم ، و من ثم لا يمكن التماس تفوق أحدهم أو فريق منهم ، من قبل هذا الباب . لأن الذي يختلفون فيه هو " ألفاظهم و أعاريض أشعارهم " . أي أن التنافس و التباري إنما يكون في هذا الجانب ، " تخير اللفظ ، و جودة السبك ، و إقامة الوزن ، و كثرة الماء " أي في النسج و الصناعة " من جهة ، و في الشعرية من جهة أخرى .

و لعل في هذا ما يفسر مقولته الشهيرة " المعاني مطروحة

في الطريق ، يعرفها الأعجمي و العربي ، و البدوي و القروي و المدني " . فالمعاني ليست مجالا للتنافس و المقارعة . ذلك ما جسده في العديد من نصوصه النقدية . حيث نلمس ذلك في عدة أحكام أصدرها أبو عثمان في شأن معنى معين نظم فيه أكثر من شاعر . و كانت الغلبة و التقدم لمن أحسن التعبير عنه أكثر من غيره ، و أجاد بناء شعره بما كساه من كريم اللفظ ، و ما وفره له من " كثرة الماء " و سهولة المخرج " و " إقامة الوزن " . من ذلك قوله :" و قال الآخر (يعني مهلهل بن ربيعة)

أودى الخيار من المعاشر كلهم   و استب بعدك يا كليب المجلس

و تنازعوا في كل أمر عظيمة   لو قد تكون شهدتهم لم ينبسوا

و أبيات أبي نواس على أنه مولد شاطر أشعر من شعر مهلهل في إطراق الناس في مجلس كليب ، و هو قوله :

و ما خبزه إلا كليب بن وائـــل

ليالي يحمي عزه منبت البقل

و إذ هو لا يستب خصمان عنده

و لا القول مرفوع بجد و لا هزل(53)

فمحل التقديم و التقدير إنما هو التعبير عن معنى إطراق الناس في مجلس كليب ، فهو أمر محدد ليس مطلقا ، و الحكم الصادر في هذا الشأن لم يأت مرسلا ، بل حدده أبو عثمان في نص بعينه ، إنه لم يزعم أن أبا نواس أشعر من مهلهل في المطلق ، و ذلك على الرغم من إقراره برياسته في نصوص نقدية أخرى ، بل حدد التفوق في هذا الشعر بعينه ، الشعر الذي يتضمن معنى محددا . و لما كان هذا المعنى مشتركا بين الشاعرين فإن من البديهي أن تفوق الشاعر المولد على سلفه الجاهلي إنما كان في " تخير اللفظ " المناسب للتعبير عن ذاك المعنى بعينه ، و في " كثرة الماء و " إقامة

الوزن " و " جودة السبك " أي في " التشكيل و " البناء و " الشعرية" .

و الموقف نفسه يتكرر لدى أبي عثمان في شعر آخر تضمن معنى واحدا ، طرقه أكثر من شاعر . قال في هذا الصدد :" و في هذا الباب .... يقول بشار :

كأن مثار النقع فوق رؤوسهم
و أسيافنا ليل تهاوى كواكبه

و قال عمرو بن كلثوم

تبنى سنا بكهم من فوق أرؤسهم
سقفا كواكبه البيض المباتير

و هذا المعنى قد غلب عليه بشار" (54)

ثم يؤكد أبو عثمان هذا الموقف في نص آخر ، تناول فيه عنترة و وصفه وقوع الذباب و حك إحدى يديه بالأخرى ، فقال :" فإنه وصفه فأجاد صفته فتحامى معناه جميع الشعراء ، فلم يعرض له أحد منهم . و لقد عرض له بعض المحدثين ممن كان يحسن القول . فبلغ من استكراهه لذلك المعنى ، و من اضطرابه فيه ، أنه صار دليلا علي سوء طبعه في الشعر . قال عنترة :

جادت عليها كل عين ثـــــرة فتركن كل حديقة كالدرهم
فترى الذباب بها يغني وحده هزجا كفعل الشارب المترنم
غردا يحك ذراعه بدراعـــــه فعل المكب علي الزناد الأجذم

قال : يريد فعل الأقطع المكب على الزناد . و الأجذم : المقطوع اليدين . فوصف الذباب إذا كان واقعا ثم حك إحدى يديه بالأخرى ، فشبهه عند ذلك برجل مقطوع اليدين ، يقدح بعودين . و متى سقط الذباب فهو يفعل ذلك .

و لم أسمع في هذا المعنى بشعر أرضاه غير شعر

عنترة". (55)

فالجودة في الصناعة و الإتقان في البناء ، و تحسين المخارج بإقامة الوزن و تخير اللفظ اللذين يوفران للنص ذلك الإيقاع الممتع لما به من موسيقى داخلية و خارجية . تلك هي العناصر التي تجعل من شعر عنترة أمرا مستعصيا على بقية الشعراء ، و تدفع أبا عثمان إلى رفض أشعار الذين عرضوا لذلك المعنى و جافاهم التوفيق ، يستوي في ذلك من الشعراء من هم في مستوى عنترة، و من هم فوق ذلك ، حتى " قائد لواأهم إلى النار " و المقدم فيهم ، هذا ما يختم به أبو عثمان قوله في شأن التعبير عن المعنى ، في موضع آخر من كتابه ، حيث يعقب على أبيات عنترة بقوله :" فلو أن أمرأ القيس عرض في هذا المعنى لعنترة لافتضح " . (56)

فقد أجاد عنترة وصف هذا المعنى و برع في بناء شعره بما وفره له من عناصر بيانة راقية ، أبدع في نسجها و إخراجها بشكل يجعلها تدخل باب الإعجاز ، و تستعصي من ثم على الرؤساء النقباء من الشعراء .

- النهج الأمثل في عملية الإبداع

عمد أبو عثمان إلى رسم نهج للمبدع ، و حثه على اتباع خطواته في عملية الخلق الفني ، حيث أشار عليه و هو مقبل على إبداع النص الأدبي بتهيئة المعنى أولا ، ثم البحث عن اللفظ الذي يناسبه و يعبر عنه بدقة و وضوح انطلاقا من إيمانه بأن المعاني موجودة مطروحة لدى الجميع ، و إنما العبرة في إخراجها و التعبير عنها بما ينتظم من ألفاظ في الجمل و العبارات الشيء الذي جعله يعيب على المبدعين تهيئة اللفظ قبل المعنى ، و كأنه يستقرىء المستقبل ، حيث يتحول المبدعون بعد زمن قصير من عصره إلي صناع حرفتهم صناعة تشكيلات من الألفاظ تفيض رونقا و وشيا ،

مما أدى إلى تواري أهمية المعنى من جهة ، و ظهور الألاعيب اللغوية، و الرياضات اللفظية من جهة ، و هو ما انحدر بالأدب العربي إلى مستويات أضرت به .

كان أبو عثمان و هو يعالج قضية الخلق الأدبي يستقرئ هذا كله ، من أجل ذلك راح ينبه إلي مضاره ، و يحذر المبدعين من الوقوع في شروره ، مثلما يفعل في مقولته هاته :" و شر البلغاء من هيأ رسم المعنى قبل أن يهيء المعنى عشقا لذلك اللفظ ، و شغفا بذلك الاسم ، حتى صار يجر إليه المعنى جرا ، و يلزقه به إلزاقا ، حتي كأن الله تعالى لم يخلق لذلك المعنى اسما غيره . و منعه الإفصاح عنه إلا به " (57)

إن إلحاح أبي عثمان على تقديم المعنى في عملية الإبداع الأدبي ، و تحضيره و تجهيزه قبل اختيار لفظ يعبر عنه و يناسبه ، قد يبدو من أبي عثمان تراجعا عن موقفه من إعجاب أبي عمرو الشيباني بمعنى البيتين المذكورين سالفا ، و تناقضا مع قوله بالمعاني المطروحة ؛ غير أن المقولة الأخيرة يجب أن تؤخذ في سياقها - كما لاحظنا من قبل - فالجاحظ في النص يعالج مسألة الخلق الأدبي ، و يحدد النهج السليم الذي يجب على المبدع اتباعه ، و كيف يجب أن تنظم مراحله و ترتب عناصره ، فالمعنى سابق بطبيعته على اللفظ في الترتيب و التهيئة ، إذ أن الفكرة تخطر للإنسان و تهجم على خاطره ، و لما تتبلور و تكتمل و تنضج و يقتنع بها و يقرر إبرازها و تقديمها يبحث لها عن المخرج السليم ، و يقدمها في الثوب الذي يبرزها علي حقيقتها أو يزينها و يزيد من جمالها و رونقها . يقول أبو عثمان في هذا الشأن :" إن المعاني إذا كسيت الألفاظ الكريمة ، أو أكسيت الأوصاف الرفيعة ، تحولت في العيون عن مقاديره صورها و أربت على حقائق أقدارها ،

بقدر ما زينت ، و حسب ما زخرفت " . (58)

و اللغة العربية بثرائها و بما توفره للمبدع من خيارات و حلول ، تشكل معينا لا ينضب ، يغرف منه صاحب العمل الأدبي حاجته، و يجد به ما يكسو معانيه من لفظ رشيق ، و تعبير جميل ، و بخاصة إذا سلمنا بما يقدمه عنصر الترادف في العربية للمبدعين من حرية ، و تنوع . فاللغة تتنوع بتنوع مستعمليها ، و الألفاظ تختلف باختلاف البيئات الاجتماعية ، و الفئات البشرية التي تدور فيها ، و تتفاوت بتفاوت مستوى التحصيل و الصناعة.

من هنا فإن المبدع من حقه بل من واجبه أن يعبر باللفظ الذي يراه مناسبا للمعنى الذي بين يديه ، و الذي هو كفء له ، يساويه من حيث القيمة و يشاكله من حيث الطبيعة .

- مبدأ المطابقة و المشاكلة بين اللفظ و المعنى

إن هذه المسألة تشكل أهم الجوانب في ثنائية اللفظ و المعنى كما عالجها أبو عثمان ، و المبدأ الأساسي الذي نادى به في هذه القضية ، حتى صار عنده مذهبا ، و ناضل من أجله حتى أصبح منهجا يعرف به عند أولي البصيرة و الدراية بآرائه و أفكاره في قضايا النقد و البلاغة . و ذلك إنطلاقا من قولته الشهيرة :" و لكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ و لكل نوع من المعاني نوع من الأسماء " (59)

إن المتصفح للنصوص التي تضمنت آراء الجاحظ في ثنائية اللفظ و المعنى يدرك دون كبير عناء أن مبدأ المطابقة و المشاكلة هو محور معالجة أبي عثمان لهذه الثنائية و مذهبه الذي اعتنقه و دعا إليه ، انطلاقا من إدراكه للتنوع و الثراء الذي يميز اللغة العربية من جهة ، و التباين و التفاوت الذي يطبع الفئات البشرية، و بيئاتها الاجتماعية و الثقافية ، ثم التخصص اللغوي

لدى هذه الفئات ، و ذلك على حساب انشغالاتها و مجالات اهتماماتها ، و الدائرة الاجتماعية و الثقافية التي تتحرك فيها ، و التي تخلق بدورها دائرة لغوية خاصة تعبر عن عناصر واقعها ضمن الدائرة اللغوية الكبرى التي تعبر عن حركية الحياة لمجتمع ما .

و أبو عثمان يطرح هذه المسألة ضمن مقاربته الواقع اللغوي، و علاقته بالخطاب الأدبي ، و دور الزوج " اللفظ و المعنى " في صناعة هذا الخطاب و بنائه . و قد قاده اجتهاده في هذا المسعى إلى هذه اللغة " القطاعية " ، أو " الفئوية " ، التي تعبر بصدق عن حياة قطاع من المجتمع أو فئة من فئاته ، و ما يطبعها من علاقات ، و ما يحكمها من عناصر . ذلك أنها في تصور أبي عثمان بما تملكه من خصوصية ، و تنفرد به من مميزات تستقل بوجودها ، و تدور حول محاور خاصة بها ، تنشأ حولها معان خاصة بها تتطلب لغة تعبر عنها ، و لا تتعداها إلى غيرها.

إن أبا عثمان من خلال هذا التصور ، يطرح على الساحة اللغوية و البلاغية عنصر " المطابقة " كنتيجة منطقية لعامل التفتيت و التجزئة الذي أخضع له اللغة ؛ و هو بذلك يخلق دوائر لغوية أصغر ضمن الدائرة اللغوية الكبرى ، حيث تنتظم تلك الدوائر القطاعية ضمن لغة المجتمع ، زو في اللغة الجامعة للأمة . و نتيجة لهذه الرؤية يجعل أبو عثمان للخاصة لغة و للعامة لغة أخرى ، بل يتدرج في مسار التجزئة و التفتيت فيجعل للمتكلمين لغة يعبرون بها عن اشتغالاتهم و قضاياهم و للأدباء لغة و للحرفيين لغة و للتجار لغة ، و للعسكريين لغة ، و هكذا ، و ذلك – في تصوره دائما – لأن كل فئة من هذه الفئات لها واقع به معان خاصة به ، تتطلب ألفاظا تناسبها و تشاكلها ، بل تطابقها ، و لا

تصلح للتعبير عن غيرها . يقول في هذا الشأن :" لكل صناعة ألفاظ قد حصلت لأهلها بعد امتحان سواها فلم تلزق بصناعتهم إلا بعد أن كانت مشاكلا بينها و بين تلك الصناعة " . (60)

و الجاحظ عندما يزعم هذا ، فإنه إنما يفعل طلبا لأداء الخطاب البياني مهمته الأساسية التي هي الإفهام . و تحقيقا لهذه الغاية يحرص على إشراك المتلقي في عمليته الإبداعية ، ليجعله طرفا في صناعة خطابه ، و شريكا في بناء نصه . يقول في هذا الشأن :" و أرى أن ألفظ بألفاظ المتكلمين ما دمت خائضا في صناعة الكلام مع خواص أهل الكلام ، فإن ذلك أفهم لهم عني و أخف لمؤنتهم على " . (61)

فإشراك المتلقي في العملية الإبداعية أمر من شأنه أن يساعد على تحقيق الغاية من بناء الخطاب ، التي هي الإفهام ، من ثم وجب التخصص و اللجوء إلى وقف ألفاظ على معانيها ، التي هي مقصورة عليها لا تتعداها بحكم الموضوع الذي يتناوله الخطاب، و الصناعة المعبر عنها ، التي مت لزمها المرء ألف الألفاظ التي تعبر عنها ، و تعود عليها ، فتصبح متى متداولة على لسانه من قبيل الألفة ، و على سبيل العادة . يقول أبو عثمان في هذا الشأن:" و لكل قوم ألفاظ حظيت عندهم ، و كذلك كل بليغ في الأرض ، و صاحب كلام منثور ، و كل شاعر في الأرض و صاحب كلام موزون ، فلا بد من أن يكون قد لهج و ألف ألفاظا بأعينها ؛ ليديرها في كلامه و أن كان واسع العلم غزير المعاني ، كثير اللفظ". (62)

فالعادة و الألفة عنصران يؤثران لا محالة في اختيار الناس لألفاظ بعينها ، و لا يتم لهم ذلك إلا في أوساطهم و بيئاتهم ، من ثم أعطى الجاحظ مؤثرات البيئة و المحيط أهمية كبرى ؛ لأن

الشاعر أو الأديب إنما يستعمل ألفاظا ألفها واعتاد استعمالها بحكم انتمائه إلى فئة معينة أو تعاطيه صناعة ما، أو لاقتناعه بتلاؤم تلك الألفاظ و تكافئها مع المعاني التي يريد التعبيرعنها، ومن هنا كان لعلماء الكلام ألفاظ يستعملونها في أوساطهم وبيئاتهم ، و للزنادقة ألفاظ تعبر عن فكرهم و مذهبهم أحسن تعبير ، فهي علامة من علاماتهم ، و هكذا شأن أصحاب كل مذهب و كل صناعة .

إن رؤيته نابعة من إيمانه العميق بمبدأ التلاؤم و التوافق الذي يجب أن يحكم العلاقة بين طبقات المجتمع و لغاتها ، فكل فئة اجتماعية لها لغتها التي تناسبها و تعبر عن نشاطاتها ، و حياتها أحسن تعبير ؛ لأنها إنما حصلتها بعد ممارسة و اختيار طويلين . و من الخطأ أن يستعمل المرء ألفاظا ألفتها فئة اجتماعية ، مع فئة أخرى . فالمقام هو الذي يحدد لغة الخطاب . يقول في هذا الشأن :" و كذلك فإنه من الخطإ أن يجلب ألفاظ الأعراب ، و ألفاظ العوام و هو في صناعة الكلام داخل . و لكل مقام مقال و لكل صناعة شكل".(63)

إذن فاللغة عنده تختلف باختلاف الفئات ، و تتباين بتباين الصناعات فهي تدور في دوائرها الاجتماعية و المهنية ، حيث تستقل كل فئة بلغة تناسبها و تشاكلها ، لذا فضلها أصحابها على غيرها بعد طول امتحان ، و عميق تجربة .

إن اللغة عند أبي عثمان مستويات و درجات ، و هي أنواع و أصناف تتنوع بتنوع بيئاتها و تتدرج على حساب تدرج المستويات الثقافية و الاجتماعية ، و ربما كانت عنده على هذا الشكل لما كانت عليه شخصيته المركبة ، و لما كان عليه تنوع ثقافته، و تعدد انشغالاته ، و هو ما لاحظته الدكتورة وديعة طه

النجم ، حيث تقول في شأنه :" إن هذا الجمع بين مستويين للغة - كل مستوى يؤدي غايته - ربما كان مظهرا مهما من مظاهر ثقافة الجاحظ نفسه ، يتجلى في كتاباته التي احتوت على شتى المجالات ، فكان لكل مجال لغته " . (64)

إن مسألة تلاؤم اللغة مع الطبقات الاجتماعية و البيئات الثقافية ، و توافق كل صناعة مع معجم لغوي ، يناسبها تركت آثارها في ميدان النقد الأدبي ، حيث نجد ابن رشيق القيرواني يقرها و يجعلها مبدأ يرى أن يلزم الشعراء به ، فيصرح في هذا الصدد قائلا :" و للشعر ألفاظ معروفة ، و أمثلة مألوفة ، لا ينبغي للشاعر أن يعدوها و لا أن يستعمل غيرها " . (65)

و قد تعددت النصوص التي تتضمن آراء الجاحظ في هذه المسألة ، و تؤكد مبدأ المشاكلة و المطابقة بين الألفاظ و المعاني ، حتى أصبح هذا المبدأ أهم عنصر في قضية اللفظ و المعنى عند أبي عثمان - كما أسلفنا - و ربما قاده حماسه إلى شيء من الغلو في هذا الأمر حتى جعل للمعاني حقوقا على المبدع ، يجب أن يراعيها في عمله الفني ،و أصولا عليه أن يتقيد بها ، لعل أهمها أن يكون اللفظ على مقاس المعنى ، مطابقا له لا يفضله ، و لا يقصر عن تأدية وظيفته في الإبانة . و لا يشترك معه غيره في هذا :" و من علم حق المعنى أن يكون الاسم له طبقا ، و تلك الحال وقفا ، و يكون الاسم له لا فاضلا و لا مفضولا ، و لا مقصرا و لا مشتركا و لا مضمنا ". (66)

فاللفظ وفق ما تقدم - خاص بمعناه لا يقوم بالتعبير عن غيره ، و لا يقصر عن التعبير عنه . أو عن جزئية من جزئياته و لا يترك مجالات للالتباس و الغموض في أداء وظيفته التي هي الكشف عن المعنى و إبرازه و الإحاطة به كاملا دون حاجة إلى وسائل إبانة أخرى - كالإشارة مثلا -.

فالوضوح في إبراز المعنى و التعبير عنه عامل على جانب كبير من الأهمية ، و لكي يتحقق ذلك في نص الأديب رأى أبو عثمان أن ينبذ المبدع كل تعقيد و غرابة في اللفظ ، و ينأى بنفسه عن الألفاظ الحوشية التي من شأنها أن تحجب المعنى عن المتلقي، فيضيع بذلك هدف المبدع ، و تبطل فائدة العمل الأدبي ، و من ثم نجد أبا عثمان يصرح في هذا الصدد :" و تعطي المعنى حقه من اللفظ كما تعطي اللفظ حقه من المعنى ، و تحب المعنى إذا كان حيا يلوح و ظاهرا يصيح ، و تبغضه إذا كان مستهلكا بالتعقيد مستورا بالتغريب و تزعم أن شر الألفاظ ما غرق المعاني و أخفاها و سترها و عماها " . (67)

و يقول د/ الأخضر جمعي معلقا على عنصر الوضوح و الدلالة التصريحية :" فبمدأ الوضوح و اعتماد الدلالة التصريحية في علاقة اللفظ بالمعنى مشروطان بتحقيق وظيفة تبليغية مباشرة إفهامية " . (68)

فالتعقيد و التغريب و إخفاء المعاني و سترها عيب في العملية الإبداعية ؛ لأنه ينفي عن الخطاب وظيفته البيانية، ويحول دون عملية الإفهام و التبيين التي هي أساس وجوده ، و الغرض من توجيهه إلي المتلقي ، و لذا كانت الإبانة و الوضوح في الخطاب هي جوهر جانبه الفني ، و علامة تفوقه و تقديمه . يقول أبو عثمان في هذا الشأن :" أحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ، و معناه في ظاهر لفظه " (69)

فوظيفة اللغة عند أبي عثمان محددة في تقديم المعنى في أوضح الصور و بأقصر الطرق و أوجز الخطاب . فالمعنى الذي يصل إلى المتلقي في يسر و بساطة، و دون بذل جهد أو تكلف مشقة، هو المعنى الذي يعطي الخطاب قيمته ، و يكسبه رونقه ؛ لأن الغاية من

اللغة هي الإبانة عن المعنى ، و إيصال الفكرة إلى المتلقي دون مشقة أو جهد . فلا ننسى أن " المعاني في مقام الجواري و أن الألفاظ في مقام المعارض " . (70)

لكن إذا كان أعجب الخطاب عند المتلقي ما اعتمد من اللفظ " ما رق و عذب و سهل " . (71) فإنه لا يعني عند الجاحظ السقوط في السوقية و العامية ، " كما لا ينبغي أن يكون اللفظ عاميا و ساقطا و سوقيا ، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبا وحشيا " . (72) فهو يدعو بوضوح إلى " الوسطية في انتقاء المعجم اللفظي " . (73) لأنها - في رأيه - هي الكفيلة بالارتقاء بالخطاب عن لغة العامة و السوقة و في الوقت نفسه تحقق غاية الإفهام و الوضوح .

و تجدر الإشارة - هنا - إلى أن المبدأ لم يقتصر - عنده - على ثنائية اللفظ و المعنى بل نادى بتطبيقه في كل الأعمال الفنية، واتخذه أساسا لمفهوم الجمال ، الذي حصره في التناسب و الاعتدال و التمام . فجمال الجسم عند الإسان يكمن في تجانس أجزاء الوجه و تناسقها من حيث الحجم و الشكل ، و توازن الأطراف و اتفاقها . كالعينين الكبيرتين اللتين تلائمان الأنف الكبير ، و الرأس الضخمة التي توافق الجسم الضخم و هكذا.(74)

إن المطابقة و المشاكلة و الاختصاص و الإبانة في وضوح ، عناصر وجد فيها أبو عثمان قاعدة الجمال الفني ، من ثم كان إلحاحه عليها في أكثر من موضع ، و النص عليها في أكثر من مناسبة ، فأعجب الألفاظ ما " كان موقوفا على معناه و مقصورا عليه دون سواه لا فاضل و لا مقصر و لا مشترك و لا مستغلق"(75)

فمبدأ المطابقة الذي يلح عليه أبو عثمان يتعدى مقدار التناسب و التلاؤم ، بل إن المشاكلة التي نص عليها لا تتحقق عنده إلا بالتلازم و الترابط العضوي، فاللفظ يجب أن يتقيد بالمعنى

الذي خلق له و تواجد من أجله، لا يتعداه إلى غيره ، و لا يقصر عن الدلالة عليه . فهو خاص به لا يشترك فيه معه معنى آخر .

إذن ، فالمشكلة بين الألفاظ و المعاني - عند الجاحظ - هي أساس الجمال الفني في الخطاب ، و عماد الصناعة الأدبية ، من ثم راح أبو عثمان يصنف الألفاظ و المعاني ، و يجعلها مستويات و درجات ، لكل مستوى من المعاني ما يقابله من الألفاظ ، و يساويه و يشاكله ، و لكل جنس من الحديث ما يؤديه من الكلمات . إن هذا ما يعبر عنه بقوله :" و لكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ و لكل نوع من المعاني نوع من الأسماء ؛ فالسخيف للسخيف ، و الجزل للجزل " . (76)

لقد أدخل أبو عثمان الطبقية و الفئوية على الألفاظ و المعاني، فهي مستويات و درجات - كما أسلفنا - لما كان لكل قوم لغة ، و لكل فئة اجتماعية معجم تستعمله و ترجع إليه فإن ذلك يقود - لا محالة - إلي قضية أخرى ، و هي قضية مستويات اللغة التي أثارتها الدكتورة وديعة طه النجم في تعقيبها على النص السابق حيث قالت :" و معنى ذلك أن اللغة ليست مستوى واحدا ، و أن الألفاظ تنم على مقاصد صابحها .. و ما أن الإنسان هو الذي منح القدرة على تطويع قابلياته الكلامية ، حتى يحاكي مخارج الأصوات المختلفة ، فقد وجب على المتكلم أن يستغل هذه القابلية و أن يميز بين الألفاظ و أشكال التعبير ليتناسب ذلك مع غايته و طبيعة موضوعه ، و بما أن الناس طبقات متفاوتة في اللغة و الأداء، فهو ملزم بأن يناسب بين اللفظ و الموضوع الذي هو في صدده".(77)

لم يكتف أبو عثمان بإدخال الطبقية و الفئوية على قضية اللفظ و المعنى بل راح يتدرج في موضوع المشاكلة ، حيث أدخل

عليه عنصر الكم ، من ثم فالمشاكلة لم تعد في المطابقة و التلاؤم فحسب ، و إنما أصبحت كذلك في الحجم و الكم " و إنما الألفاظ على أقدار المعاني فكثيرها لكثيرها و قليلها لقليلها " (78) فعندما تكثر المعاني و تتعدد يتبع ذلك كثرة اللفظ و تعدده ، و عندما ينفرد المعنى يطابق اللفظ في الانفراد .

إذن ، فالمشكلة تكون في جميع الجوانب ، و هي تحكم اللفظ و المعنى في كل الأحوال و على كل الوجوه ، فتتحول بذلك إلى الاختصاص و المطابقة ، حيث يصبح لكل معنى لفظ خاص به يطابقه، فكأنه خلق له . و من ثم يفتح الجاحظ مجالا آخر في عالم اللغة هو مجال الترادف و ثراء اللغة ، و إذا كان في موضوع سابق أقره ، فإن حرصه على طبع علاقة اللفظ و المعنى بطابع المشاكلة و المطابقة يقوده إلي القول بالتطابق و الاختصاص ، حيث يجعل لكل معنى لفظا هو حظه و حقه من اللغة ، الذي يجب ألا يتعداه إلى غيره، و في هذا الشأن يقول :" و بالجملة إن لكل معنى شريف أو وضيع هزل أو جد و حزم أو إضاعة ضرب من اللفظ هو حقه و نصيبه الذي لا يبنغي أن يتجاوزه أو يقصر دونه " . (79)

إن أبا عثمان مدفوعا بحرصه على إفهام المتلقي ، و إشراكه من ثم في عملية صناعة الخطاب الأدبي ، يوغل في عملية التخصيص و التقييد ، فيجعل اللفظ أسيرا لدى المعنى الذي يشاكله و يوافقه ، فهو ، " حقه و حظه " لا شريك له فيه . و يجعل الفكرة لها نصيبها من البيان ، لا يتلقاها المتلقي إلا بواسطة ذلك المقدار ، و ذلك الضرب من البيان ، فهو غشاؤها و ثوبها . و لكل فكرة نصيبها من البيان الذي يجب أن تخرج بواسطته ، فلكل عنصر له موضعه الذي لا يتعداه ، هذا ما نجده في قوله :" ... حتى لا يضع اللفظ الحر النبيل إلا على مثله من المعنى ، نعم و حتى يعطي

اللفظ حقه من البيان و يوفر على الحديث قسطه من الصواب ، و يجزل الكلام حظه من المعنى ، و يضع جميعها مواضعها ، و يصفها بصفتها " . (80)

لقد رأى أبو عثمان في هذه الخصال مجتمعة عمود البلاغة و قوامها ، و التي بدونها لا جمال و لا حلاوة و لا طلاوة للعمل الأدبي ، و هي لا تتحقق إلا بضبط العلاقة بين اللفظ و المعنى و إخضاعها لهذا المبدأ الذي يقوم على أساسها. و نستطيع أن نحصر العناصر التي تحقق ذلك فيما يلي :

1 - التساوي من حيث الحجم ، و يعني ذلك تساوي اللفظ و المعنى فلا يفضل الأول الثاني بزوائد و لا يقصر عنه بنواقص .

2 - الاختصاص و الملازمة ، حيث يكون كل لفظ مختصا بمعني بعينه ، يلازمه ، و لا يتعداه إلى غيره ، و لا يشترك مع غيره في التعبير عنه .

3 - الإبانة و الوضوح : حيث يكون اللفظ سهلا مقبولا ، لا يخفي المعنى و لا يحجبه عن المتلقي ، بل يبرزه في يسر ، و يكشف عنه دون عناء أو مشقة .

4 - الوسطية : حيث يكون اللفظ في منزلة بين المنزلتين ، لا وحشي غريب و لا عامي سوقي .

5- إن هذه الصفات مجتمعة ، التي يتحقق من خلالها الجمال و التمام في النص الأدبي ، ربما تجسيد مبدأ المطابقة و المشاكلة، الذي جعله أبو عثمان أساس معالجته لقضية اللفظ و المعنى ، وحقق بذلك سبقا يحسب له في ميدان الدراسة البلاغية و النقدية .

ينطلق أبو عثمان في هذه النصوص جميعا من فكرة الملاءمة و التناسب ، و يتدرج معها شيئا فشيئا ، فيثير موضوعات المساواة و المشاكلة و الاختصاص ، و من حيث لم يكن

يقصد الغلو ، يقع فيه ، كما يقع في مفارقة عجيبة هي أنه انطلق من قضية اللفظ و المعنى ، يهدف إلى تحقيق الفصل بينهما ، و هو الفصل الذي أثار ذاك الجدل الذي مر بنا في مراحل هذا البحث السابقة ، و إذا به يصل إلى نتيجة مناقضة ، و هي وجود علاقة عضوية بين عنصري الثنائية ، فإلحاحه الشديد على المطابقة و المشاكلة ، و سعيه المتواصل إلى ترسيخ هذه الخصال كمباداء تحكم العلاقة بين اللفظ و المعنى ، و تكون بذلك أحد الثوابت في عملية الإبداع الفني ، أوصله إلى هذه النتيجة التي لم تثر اهتمام الباحثين الذين لم يسجلوها لأبي عثمان ، و اكتفوا بالدخول في جدل واسع حول فصله بين اللفظ و المعنى . هذا إذا استثنينا ملاحظة للدكتورة النجم اقتربت فيها من الحقيقة دون أن تصل إليها ، حيث نصت على " أن الفكرة أخذت تتطور عند أبي عثمان حتي أوشكت أن تشكل مذهبا نقديا متميزا " . (81)

فالدكتورة الباحثة تري أن إلحاحه على مبدأ المشاكلة و المطابقة أو شك أن يشكل مذهبا نقديا ، لكنها لم تنص – مثلها في ذلك مثل الباحثين الاخرين – على النتيجة التي خلصت إليها جهود أبي عثمان في هذا المجال ، و التي تجسد علاقة عضوية بين اللفظ و المعنى .

إن إلحاح أبي عثمان على هذه الخصال من تطابق و توافق و تجانس ، و تلاوم ، و تمسكه بمبدأ الاختصاص و التلازم ، جعله يضع بين طرفي الثنائية رباطا وثيقا يجعل وجود أي منهما يتطلب وجود العنصر الثاني ، على الرغم من نصوصه الأولى التي تضمنت فكرة وجود المعاني دون وجود ألفاظ تعبر عنها ، و قد يرى الباحثون في هذا تناقضا من أبي عثمان ، غير أن الحقيقة التي تقودنا إليها أحاديثه عن المشاكلة و الاختصاص و عباراته "السخف

للسخيف كثيرها لكثيرها ، لكل معنى ضربه من اللفظ ، هو حقه و حظه " جميعا تؤدي إلى إقرار هذه العلاقة العضوية بين العنصرين..

ثم إنه عبر هذا الترابط في الوجود ، و هذه العلاقة ، و هذا التلازم بصورة ، من صوره التي حقق بها السبق في هذا المجال ، و هي صورة العلاقة بين الروح و الجسد التي عبر عنها في أحد نصوصه ، بقوله :" و الاسم بلا معنى كالظرف الخالي ، و الأسماء في معنى الأبدان و المعاني في معنى الأرواح ، اللفظ للمعنى بدن ، و المعنى للفظ روح " . (82)

إن المتمعن في هذا النص ، و في النصوص السابقة ، يدرك أن الجاحظ ما زال وفيا لفكرته المتعلقة بوجود كل من المعاني و الألفاظ ، بوصفهما طرفي المعادلة البيانية و أهم عنصرين تقوم عليهما العملية الإبداعية .

هذه هي مجمل أفكار الجاحظ و آرائه في قضية اللفظ و المعنى ، و هذه هي أهم النصوص التي عالج فيها هذه الثنائية، فكيف كانت آثارها في عالم الدراسة النقدية قديما و حديثا ؟

إذا سلمنا بأن أبا عثمان هو أول من أثار هذه الثنائية بهذا الشكل المفصل ، و إذا سلمنا بأن بشر بن المعتمر لم يعالجها بهذا التفصيل في وثيقته التي نقلها الجاحظ نفسه فإننا نستطيع أن نحدد تأريخا لعرض هذه القضية على بساط الدراسة نرى أنه ، هو زمن تأليف سفري الجاحظ العظيمين : الحيوان ثم البيان و التبيين . و هذا التأريخ يوافق زمن كل من الواثق و المتوكل أي الربع الثاني من القرن الثالث الهجري . و منذ هذا التأريخ و صدى عبارات الجاحظ تتردد على مسامع الدارسين ، كما أشار إلي ذلك الدكتور جابر عصفور فيما مر بنا من أجزاء هذا البحث ، فكيف كان إقبال المنشغلين بهذا الأمر على أقوال الجاحظ المتضمنة لآرائه و زحكامه : .

هذا ما سيتم تحديده في القسم الثاني من هذا البحث بإذنه تعالى .

هوامش البحث

1 – د. محمد عباد الجابري . بنية العقل العربي – دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية.ط3 . المركز الثقافي العربي ، بيروت ، الدار البيضاء1993، ص 41

2 – المرجع السابق ، ص 41

3 – د . محمد طاهر درويش ، في النقد الأدبي عند العرب ، ط ، مكتبة الشباب ، مصر 1976 ، ص 190 .

4 – د . محمد عابد الجابري ، بنية العقل العربي ، ص 41 .

5 – د . هند حسين طه . النظرية النقدية عند العرب . ط . دار الرشيد ، بغداد 1981 ، ص 117 .

6 – محمد جمعة عبد الصمد عابد ، من قضايا النقد الأدبي ط ، مطبعة الأماني ، مصر 1987 ، ص 154 .

7 – د . هند حسين طه ، النظرية النقدية عند العرب، ص 117

8 – د عبد القادر القط ، مفهوم الشعر عند العرب كما يصوره كتاب الموازنة للآمدي ، ترجمة عبد الحميد القط ، ط ، دار المعارف ، مصر 1982 ، ص 163 .

9 – د ، وديعة طه النجم ، الجاحظ و النقد الأدبي،حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية العاشرة 1989، ص 57

10 – محمد زغلول سلام ، تاريخ النقد العربي ، ط دار المعارف ، مصر . 1964 . 1 / 68

11 – د . محمود المرسي الحسيني ، مفهوم الشعر في النقد العربي حتى نهاية القرن الخامس الهجري – ط دار المعارف ، مصر 1983 . ص 168

12 - د ، محمد طاهر درويش . في النقد الأدبي عند العرب ، ص 193

13 - د . فوزي عبد ربه عيد ، المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان و التبيين ، ط دار الثقافة ، مصر 1983 .

14 - د . محمد عابد الجابري ، بنية العقل العربي ، ص 76

15- د جابر عصفور ، الصورة الفنية في التراث النقدي و البلاغي ، ط دار المعارف ، مصر دت ، ص ص 347 - 348

16 - د ، ويعة طه النجم ، الجاحظ و النقد الأدبي ، ص 57

17 - المرجع السابق ، ص 59

18 - محمد جمعة عبد الصمد عابد ، من قضايا النقد الأدبي، ص 109

19 - الأخضر الجمعي ، اللفظ و المعنى - في التفكير النقدي و البلاغي عند العرب - ط اتحاد الكتاب العرب ، دمشق 2001 . ، ص 50

20 - د ، محمد عابد الجابري ، بنية العقل العربي ، ص 78

21- الجاحظ ، عمرو بن بحر ، الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط ، مصطفى البابي الحلي ، مصر 1965 - 131 / 3،1979

22 - محمد شكري عياد ، المؤثرات الفلسفية و الكلامية في النقد العربي و البلاغة العربية ، مجلة أقلام ، عدد 11 ، السنة 15 ، بغداد 1980 ، ص 10

23 - د ، وديعة طه النجم ، ، الجاحظ و النقد الأدبي ، ص 58

24 - الجاحظ ، الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون ،3 / 131

25 - د ، وديعة طه النجم ، الجاحظ و النقد الأدبي ، ص 59

26- المرجع السابق ، ص 57

27- الأخضر الجمعي ، اللفظ و المعني ، ص ص 48 - 49

28 - الجاحظ ، عمرو بن بحر ، البيان و التبيين ، ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط الخانجي ، مصر ، 1975 ، 1 / 75

29 - الجاحظ ، عمرو بن بحر ، رسائل الجاحظ ، ، تحقيق عبد السلام هارون ، ،ط الخانجي ، مصر ، دت ، 1 / 262

30 - الآية 31 من سورة البقرة

31 -الجاحظ ، رسائل الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، 1 / 262

32 - د . محمد زكي العشماوي ، قضايا النقد الأدبي و البلاغة ، ط، دار الكتاب العربي ، مصر 1967 ، ص 272

33 - حسين توفيق ظاظا ، اللسان و الإنسان ، - مدخل إلي معرفة اللغة - ط، مطبعة المصري ، الاسكندرية دت، ص82

34 - المرجع السابق ، ص 82

35- د ، علي بوملحم ، المناحي الفلسفية عند الجاحظ ، ، ط ، دار الطليعة ، بيروت 1980 ، ص 238

36 - د ، محمد زغلول سلام ، ، تاريخ النقد العربي ، 1 / 61

37 - د ، محمد عابد الجابري ، بنية العقل العربي ، ص 78

38- د ، وديعة طه النجم ، الجاحظ و النقد الأدبي ، ص 58

39 - الأخضر الجمعي ، اللفظ و المعنى ، ص 53

40 - د عبد السلام المسدي ، البيان و التبيين بين منهج التأليف و مقاييس الأسلوب ، ضمن قراءات مع الشابي و الجاحظ و ابن خلدون ، الشركة التونسية للتوزيع ، تونس 1981 . ص 134

41 - الأخضر الجمعي ، اللفظ و المعنى ، ص 54

42- الجاحظ البيان و التبيين ، تحقيق عبد السلام هارون ، 1 / 67
43 - المصدر نفسه ، 4 / 24
44- الجاحظ ، الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون ، 1 / 9
45 - العثمانية ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي، مصر، و مكتبة المثنى، بغداد 1955 ، ص 16
46 - الجاحظ ، البيان و التبيين ، تحقيق عبد السلام هارون، 1 / 383
47 - د وديعة طه النجم ، الجاحظ و النقد الأدبي ، ص 61
48 - د ، محمد جمعة عبد الصمد عابد ، ، من قضايا النقد الأدبي ، ص 115
49 - د محمد عابد الجابري ، بنية العقل العربي ، ص 106
50 - الجاحظ ، الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون ، 4 / 89
51 - المصدر السابق ، 4 / 90
52 -المصدر نفسه ، 3 / 311
53 - المصدر نفسه ، 3 / 128
54 - المصدر نفسه ، 3 / 127
55 - المصدر نفسه ، 3 / 311
56 - المصدر نفسه ، 3 / 127
57 - الجاحظ ، رسائل الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، 3 / 39
58 - الجاحظ ، البيان و التبيين ، تحقيق عبد السلام هارون ، 1 / 254
59 - الجاحظ ، الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون ، 3 / 39
60 - المصدر السابق ، 3 / 368

61 – المصدر نفسه ، 3 / 268

62 – المصدر نفسه ، ، 3 / 366

63 – المصدر نفسه ، 3 / 369

64 – وديعة طه النجم ، الجاحظ و النقد الأدبي ، ص 66

65 – ابن رشيق ، أبو علي الحسن القيرواني ، العمدة – في محاسن الشعر و آدابه و نقده – تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ط 4 ، دار الجيل ، بيروت ، 1972 ، 1 / 124

66 – ، الجاحظ البيان و التبيين ، تحقيق عبد السلام هارون ، 1 / 92

67 – الجاحظ ، عمرو بن بحر ، كتاب التربيع و التدوير ، تحقيق شارل بلا ، ترجمة إبراهيم الكيلاني ، ط دمشق ، 1955 ، ص 20

68 – د ، الأخضر الجمعي ، اللفظ و المعنى ، ص 43

69 – الجاحظ ، البيا ن و التبيين ، تحقيق عبد السلام هارون، 1 / 83

70 – المصدر السابق ، 1 / 254

71 – الجاحظ ، التربيع و التدوير ، تحقيق شارل بلا ، ص 20

72 – الجاحظ البيان و التبيين ، تحقيق عبد السلام هارون ، 1 / 144 + 1 / 378

73 – د ، الأخضر الجمعي ، اللفظ و المعنى ، ... ص 45

74 – الجاحظ ، رسائل الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، 2 / 162

75 – الجاحظ ، كتاب التربيع و التدوير ، تحقيق شارل بلا ، ص 20

76 - الجاحظ ، الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون ، 3 / 39
77 - د ، وديعة طه النجم ، الجاحظ و النقد الأدبي ، ص 63
78 - الجاحظ ، الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون ، 6 / 07
79 - الجاحظ ، رسائل الجاحظ ، ، تحقيق عبد السلام هارون ، 3 / 40
80 - المصدر السابق ، 4 / 239
81 - د وديعة طه النجم ، الجاحظ و النقد الأدبي ، ص 62
82 - الجاحظ ، رسائل الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، 1 / 262